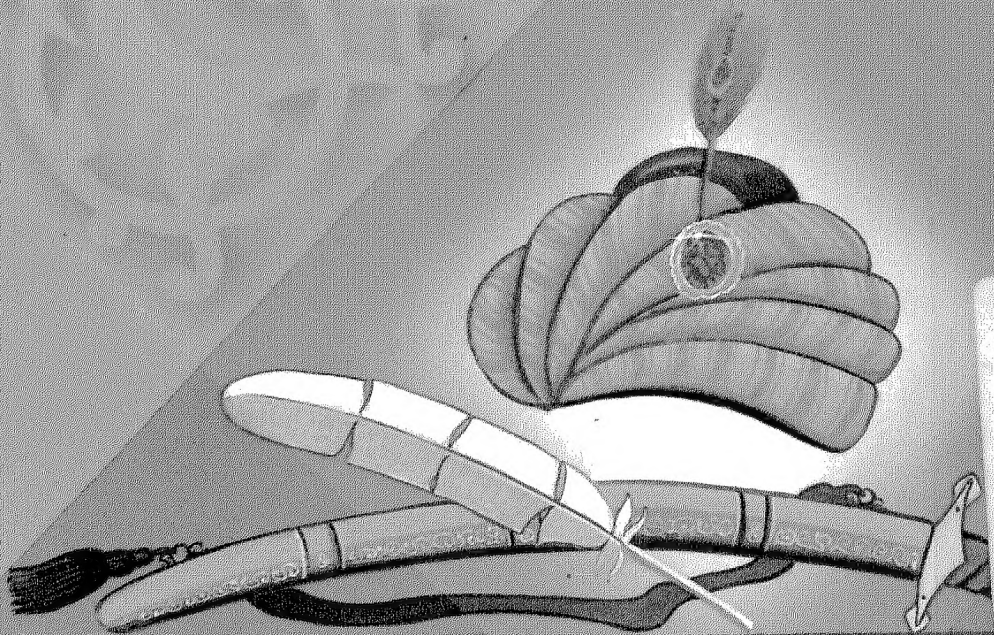


# الناصر محمد بن قلاوون

تأليف  
أسامة حسن



1  
909  
2



التأمر محمد بن قلاوون



## دار الأمل

٨ شارع عبد العزيز حامد - أول الملك فيصل - الهرم

٥٨٦٠٨٩٢

٩٧/٥٦٤٧

1 - 02 - 5823 - 977

مطابع زمزم

العاشر من رمضان

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

أرمس للكمبيوتر

٣٢ ش على عبد اللطيف - مجلس الأمة - لاطو غلى

٣٥٦٤٤٠٤

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

الناشر :

المنوان :

تليفون :

رقم الإيداع :

الترقيم الدولي :

طبع :

المنوان :

جمع وإخراج :

المنوان :

تليفون :

الطبعة الأولى

# الناصر محمد بن قلاوون

تأليف

أسامة حسن





## المقدمة

طفل أتاح الملك وهو فى التاسعة من عمره ، وذلك بعد مقتل أخيه الأشرف خليل بن قلاوون سلطان مصر ، والأشرف هو الآخر ورث الملك خلفاً لأبيه السلطان المنصور قلاوون وهم من المماليك البحرية ..

والمماليك كانوا فى الأصل أرقاء - أى عبيد أتى بهم بعض سلاطين الأيوبيين كى يتدربوا على الأعمال العسكرية ويكونوا فى خدمة السلطان .. وكان السلاطين يعتقدون من يكون متميزاً فيهم وأكثر ولاء لهم .. وارتقى المميزون منهم وذوى القدرات الخاصة إلى أرفع المناصب فى الدولة إلى أن أنشأ أحدهم ، وهو عز الدين أيبك دولة باسمهم .

شنوا حروباً كبيرة ضد الصليبيين وضد المغول ووصلوا بملكهم إلى حدود أرمينيا .

ظل المماليك يحكمون مصر حوالى ٢٥٠ عاماً بعد أن أقاموا دولتين .. المماليك البحرية من ١٢٥٠ : ١٣٨٢ م .. والمماليك البرجية من ١٣٨٢ : ١٥١٧ م .

والناصر محمد بن قلاوون من المماليك البحرية .. ورغم أن هؤلاء السلاطين من المماليك كانوا يحكمون البلاد لمدة قصيرة تنتهى فى العادة باغتيالهم بواسطة الطامعين المنافسين لهم على كرسى الحكم . إلا أنهم تركوا الكثير من الآثار تتمثل فى المساجد الشامخة والأضرحة الكبيرة والأسبلة ( جمع سبيل ) وهى الأماكن التى تمد الناس بالماء والتكايا والمدارس والمستشفيات ، وغيرها من العمارات الشامخة .

والسلطان الناصر محمد بن قلاوون الذى تحوى سيرته هذا الكتاب ببيع بالسلطة وسنه صغير لا يتجاوز التاسعة . لذلك تولى الأمير زين الدين كتبغا نائباً للسلطنة فطمع فى الحكم واتفق مع الخليفة العباسى بالقاهرة على خلع السلطان الصغير ، وتم له ذلك وأخذ مكانه ، ولكن هذا التصرف لم يقبله الماليك فخلعوه ، ولان بالفرار إلى الشام . وتضطرب الأمور فى البلاد وتتم إعادة الناصر محمد إلى السلطة ، وذلك سنة ١٢٩٨ .. ويزداد نفوذ الأمراء ويتولى العرش « بيبرس » وظل يضغط على الناصر محمد بن قلاوون الذى عاد إلى مصر واستعاد العرش فى سنة ١٣٠٩ وبدأ ينتقم ويثأر ممن سلبوه ملكه ويقرب من وقفوا إلى جانبه واسند إليهم أرفع المناصب ..

وتمضى الأيام والناصر محمد بن قلاوون يبسط نفوذه ويوطد ملكه ، وعلى المنابر تردد اسمه محفوفاً بالدعاء له ، وذلك فى مساجد مصر وسوريا وطرابلس الغرب .

ويذكر لنا التاريخ أن فى عهد الناصر محمد بن قلاوون دارت المعارك بين الماليك وبين قوات المغول انتهت بانتصار الماليك فى معركة « مرج الصفر » .. لقد قضى الناصر محمد فى الحكم ٤٣ سنة وترك من خلفه آثارا عظيمة . منها قلعة الجبل والقصر الأبلق بالقلعة وقناطر السباع على الخليج والخليج الناصرى بظاهر القاهرة .

لقد رسمنا من خلال هذا الكتاب صورة مصغرة للعصر الذى عاشه الناصر محمد بن قلاوون . نرجو - بعد أن تقرأوا الكتاب - حصولكم على الفائدة المرجوة .. وهى معرفة تاريخ بلادنا ومدى طمع الطامعين فيها . لتظل عيونكم مفتوحة تحرسها ، وأيديكم منتجة تضاعف من خيرها وتحقق لها الأمن والخير والسلام .

**المؤلف**



## الرق

كان معظم رجال الجيش فى العصر الذى ولد فيه الناصر محمد بن قلاوون من الممالك ، والممالك هم العبيد الذين كانوا يشترون بالمال من أسواق الرقيق . وتجارة الرقيق كانت أمراً مألوفاً فى هذا الزمان ، وكان الرق قديماً قدم الإنسان على هذه الأرض .

وجد الرق منذ أن وجد الضعيف والقوى ، واتسع نطاق الاسترقاق باتساع الحروب بين القبائل بعضها لبعض ، ولم تكن الحروب وحدها مصدر الرق . بل كان الفقر أيضاً من أسباب الاسترقاق ، وقد دفع الفقر بعض الناس إلى بيع أولادهم ، وأيضاً بيع أنفسهم .

ولكن بعض الناس وجدوا فى الرق قيمة اقتصادية . فأقبلوا على خطف الصغار والكبار رجالاً كانوا أو نساء ، والأمم القديمة عرفت الرق ، وجعلت له أسواقاً عامرة يباع فيها الجوارى والعبيد ، وفى الزمن القديم كان الرقيق يعامل معاملة غاية فى القسوة ، وينزل به أشد العقوبات ، ولما جاء الإسلام حاول أن يقضى على الرق وينفر الناس منه ومن تجارته ، ويقول الرسول ﷺ « شر الناس من باع الناس » .

وحاول الإسلام بشتى الوسائل أن يعتق الأرقاء ، فكفارة الصوم عتق رقبة ، وكفارة الظهار عتق رقبة ، وكفارة الإيلاء عتق رقبة ، وكذلك القتل الخطأ .

وأمر المسلمين أن يحسنوا إليهم ، فيطعموهم مما يأكلون ، ويلبسوهم مما يلبسون ، ولا يكلفوهم من العمل فوق ما يطيقون .

وبهذا استطاع الإسلام أن يحد من الرق شيئاً فشيئاً ، والتزم الخلفاء الراشدون سياسة الرحمة مع الرقيق .

يقول عمر بن الخطاب « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » .



## الممالك

كان الخلفاء العباسيون أول من أكثر من شراء الرقيق ، واتخذوا منهم خدماً لهم وجنداً وجوارٍ . فكن يعملون فى القصور ، وكانت منهن المغنيات والراقصات ، وكان الخليفة هارون الرشيد أول من وجه عناية خاصة بالجوارى ، والخليفة المعتصم أول من أكثر من شراء الممالك ، وكان يميل إلى شراء الأتراك بتأثير أمه التركية ، وقد أنشأ مدينة خاصة لهم هى « سرمن رأى » أو سامرا ، وكان أول من جلب الممالك إلى مصر هو أحمد بن طولون ، وهو ابن واحد من الممالك الأتراك . وجاء من بعده الفاطميون . الذين بالغوا فى شراء واستخدام الممالك ، وسار على نهجهم الأيوبيون الذين استعانوا بالممالك فى الحروب ، غير أن الصالح نجم الدين أيوب ، وهو آخر سلاطين الأيوبيين كان أكثرهم شراء للممالك على الإطلاق .

وكان أغلب الممالك يجلب مع تجار الرقيق . خاصة المغول والشراكسة والروم والألبانيين والصرب والأتراك .

وأكثر هؤلاء الممالك كان من صغار السن الذين يوضعون - بعد شرائهم فى قلعة الجبل . حيث يوضع لهم برنامج خاص يمكن أن يطلق عليه « صناعة الفرسان » إذ يتضمن ذلك البرنامج تعليمهم الدين وحفظ القرآن وآداب

الشريعة الإسلامية ، وبعض الفقه ، إلى جانب التدريب على بعض التمرينات البدنية . فإذا ما وصلوا إلى سن البلوغ بدأت مرحلة جديدة في التعليم يمكن أن يطلق عليها « التدريب الراقى » وفيها يدرّبون على السباحة وعلى الطعن والضرب بالسيف وركوب الخيل ، وجميع أصول الفروسية والمبارزة ، وفي تلك المرحلة كانت إقامتهم في القلعة تشبه معسكر التدريب الأساسى ، فلا يخرجون من القلعة ، ولا يختلطون بعامة الناس ، ويستمر تدريبهم على أعلى مستوى حتى يصلوا إلى مستوى الضباط ، ومع ذلك يظلون أرقاء ، وتظل حياتهم تخضع لنظام الجنديّة إلى أن يستطيع أحدهم أن يثبت جدارته وكفاءته في فن من الفنون الحربية ، وهنا يكافئه السلطان ويخرجه من زمرة الأرقاء إلى زمرة الأحرار ، وبعد أن يصبح المملوك حراً يخلع عليه السلطان ملابس تميزه عن الرقيق ، ويمنحه إقطاعاً يعيش من دخله ، وقد ترتفع وتسمو منزلة المملوك ويقوم بأعمال جليلة ، فيرقيه السلطان ويمنحه لقب الإمارة ، ومتى أصبح المملوك أميراً تحول إلى سلطان صغير . فأصبح له حرس خاص مكون من ممالك اشتراهم من أسواق النخاسة .



## المنصور قلاوون

وقلاوون هو والد الناصر محمد واحد من هؤلاء المماليك ، أصله من الأتراك ، وقد جلب إلى مصر وهو صغير ، واشتراه الأمير علاء الدين أحد ممالك الملك العادل الأيوبي بألف دينار ، ولذلك عرف بقلاوون الألفى . ولما مات أستاذه علاء الدين انتقل إلى خدمة الملك الصالح أيوب مع عدد من المماليك ، وظل فى خدمته إلى أن توفى الملك الصالح أيوب ، فظل فى خدمة الجيش المصرى حتى تسلطن الظاهر بيبرس ، وفى ظل الظاهر تزوج قلاوون بابنه أحد الأمراء المماليك ، واحتفل الظاهر بهذا الزواج ، وقدم هدية عظيمة لقلاوون ثم رقى قلاوون إلى وظيفة أتابك العساكر فى عهد السلطان العادل سلامش الابن الثانى للسلطان « بيبرس » ولم يلبث أن انتزع الملك من سلامش وأصبح سلطان مصر ، وخرج إلى المغول الذين احتلوا بلاد الشام ، وعين ابنه عليا وليا للعهد .

ثم تزوج بزوجة جديدة وهى أميرة مغولية ، واحتفل بهذا الزواج احتفالاً عظيماً ، وصرف عليه أموالاً طائلة ، وكانت سياسته قلاوون هى سياسة أمراء المماليك وهى الاكثار من شراء المماليك ، لأن الاستقرار فى الحكم

يتوقف على كثرة الأتباع . خاصة وأن أمراء الممالك يرون أنهم كلهم زملاء ، ولا يتربع على العرش إلا أكثرهم قوة وشجاعة ، وأعظمهم مهارة فى الحروب، وأكثرهم تابعاً وفرساناً ، وقد حقق قلاوون طموحه باغتصاب العرش من العادل سلامش عندما وجد فى نفسه القوة .

ثم تمادى قلاوون فى شراء الممالك ، وبلغ ما اشتراه منهم نحو اثنى عشر ألفاً ، وهو عدد لم يجتمع لأحد من سلاطين مصر من قبله ، وقد حرص على العناية بمماليكه عناية فائقة . حتى أنه كان يحرص على تفقد طعامهم بنفسه وتهذيبهم وتربيتهم تربية أخلاقية راقية ، وكف شرهم عن الناس .

وقد حرص قلاوون على إرضاء زملائه القدامى من أمراء الممالك ، وسعى لاكتساب رضائهم ، ولذلك أكثر من الوظائف فى البلاط الحكومى بصورة لم تعهد من قبل ليعيش منها زملاؤه حتى يقتل فى نفوسهم الحقد عليه بعد أن نجح فى الوصول إلى العرش .



## محمد بن قلاوون

ولد محمد بن قلاوون سنة ٦٨٤هـ من أم مغولية هي الأميرة « أشلون خاتون » ووصلت بشرى مقدمه إلى والده وهو يحارب الصليبيين فى «خربة اللصوص» فاستبشر الملك المنصور بمولده ، وعمت الأفراح قلعة الجبل .

ورغم ضراوة العصر الذى تسوده الفوضى فى داخل البلاد ، وينعدم فيه الوفاء والإخلاص لتحل محله صفات من الغدر والتآمر حتى تصبح الخيانة وتوابعها من سمات العصر ، إلا بعض الممالك استطاع أن يسمو فوق هذه الدناءات ، وأن يكتب فى تاريخ مصر والإنسانية صفحات تشع بين سطورها آيات العظمة ، ومن هذه الأعمال ما قام به السلطان قلاوون وهو بناء مدرسة للتعليم المجانى ، وكان التعليم بالمجان وإنشاء مستشفى عظيم بنبل إنسانى سجله فى تلك الكلمة التى قالها عند الفراغ من بناء مستشفى : « إنى بنيت لوجه الله ، لمعالجة المرضى من جميع الطبقات والأجناس ، ممن هو مثلى أو دونى ، للغنى والفقير ، للحر والعبد ، للذكور والإناث » .

ثم عزم قلاوون على السفر إلى بلاد الشام . فخرج ومعه ولده « على »

و « خليل » وبعد أن تناولوا طعامهم فاجأ المرض « عليا » بالليل فاضطر إلى العودة إلى قلعة الجبل آخر النهار ، واضطر السلطان إلى تأجيل سفره والعودة إلى قلعة الجبل ، وذلك لشده حبه لابنه « علي » وانتشرت الشائعات بأن « خليل » قد دس السم له « علي » .

وأخذ قلاوون فى التضرع إلى الله ويكثر فى الصدقات ، وبعث السلطان إلى رجل صوفى يدعى الشيخ عمر أبى السعود . فلما حضر إليه طلب منه أن يدعوا لولده « علي » فقال له الشيخ « أنت رجل بخيل ، ما يهون عليك شئ ، لو خرجت للفقراء عن شئ له صورة لعملوا « وقتاً » وتوسلوا إلى الله أن يهبهم ولدك لكان يتعافى » فأعطاه السلطان مبلغاً كبيراً من المال ، فعاد إليه الشيخ وقال له « طيب خاطرك ، الفقراء كلهم سألوا الله ولدك ، وقد وهبه لهم » . ولكن علياً مات بعد أسبوعين ، فحزن عليه السلطان حزناً عظيماً ، وحضر الناس للصلاة على « علي » فى القلعة مع السلطان وولده « خليل » وكان حزن الناس عليه عميقاً ، لأنه كان دمث الخلق رقيق الطبع ، عطوفاً .

وبعد سنتين خرج قلاوون لتأديب الصليبيين فى « عكا » ولكنه رجع محملاً على الاكتاف ، إذ فاجأه الموت قبل أن يبرح حدود مصر سنة ٦٨٩هـ فغسل وكفن ودفن تحت القبة العظيمة التى شيدها .

وبذلك حرم محمد بن قلاوون من أبيه وهو طفل صغير ، ولم يكن أمامه إلا الانصراف إلى دروسه . فتعلم القراءة والكتابة والحساب وحفظ القرآن ومارس الألعاب الرياضية .

وفى اليوم التالى لدفن السلطان قلاوون نودى فى الصباح بالأشرف « خليل » سلطاناً على البلاد ، فكان أول ما فعله هو استدعاء القاضى للاطلاع على التقليد الذى صدر له بولاية العهد . فأخرجه القاضى فوجده من غير



توقيع والده فسأله السبب . فأجاب القاضى أنه قدمه أكثر من مرة للسلطان ، ولكنه كان يرفض التوقيع ويقول « أنا ما أولى خليلاً على المسلمين » ولكن « خليلاً » قال : « إن السلطان امتنع أن يعطينى وقد أعطانى الله » ومن صفات « خليل » نجد أن السلطان رفض أن يوقع له بولاية العهد . حيث كان « خليل » يختلف عن والده وعن أخيه « على » إذ كان غليظ القلب وعنيفاً مع الناس . خرج عقب توليه العرش إلى الشام ليتم ما أراده أبوه قبل وفاته ، وهو طرد الصليبيى من « عكا » واستطاع أن يستولى على المدينة فى سنة ٦٩٠هـ وأن يؤدب أهل عكا ويهدم حصونها ، ونقل معه الكثير من غنائم الحرب إلى مصر. وعاد إلى القاهرة وقد زينت له العاصمة أحسن زينة ، وأمامه عدد كبير من أسرى الصليبيين ، وجاءت البشرى إلى « خليل » بأن زوجته « اردكين » حامل ، وأن العرافين قالوا : أن الجنين ذكر ، وأصدر السلطان أوامره بأن يصنع عدد مائة شمعدان من النحاس ، ومائة أخرى نصفها من الذهب ونصفها من الفضة .

وما إن اقترب موعد الوضع ، وصدرت الأوامر بالاستعداد لإقامة حفل عظيم حتى خيب الله ظن العرافين ، وجاء المولود « بنتاً » فحزن خليل ، ولكنه أصدر الأوامر بالاستعداد للحفل . لأنه يريد ختان أخيه « محمد » وابن أخيه « موسى » . وأصدر أوامره بأن يرتدى الجميع من العساكر والأمراء ملابس الحرب كاملة ، ويلبسون خيولهم آلات السلاح ، وظهر السلطان وعليه ملابس الحرب ، وخرج الناس رجالاً ونساء وأطفالاً لرؤية الموكب ، ودار السقاه على الأمراء بأوانى الذهب والفضة والبللور ويقول المؤرخون إن نفقات الحفل فى عمل السماط والثياب وغير ذلك بلغت ٣٠٠ ألف دينار ، ولكن مدة حكم الأشرف « خليل » لم تدم أكثر من ثلاث سنوات وشهرين وأربعة أيام ، وذلك

لأن الممالك كانوا يتحينون الفرصة للقضاء عليه . لكنه كان لا يعبأ بالممالك لفرط شجاعته ، لكن الشجاعة لا تفيد أمام التآمر والخيانة فقد خرج ذات يوم للصيد وأثناء الصيد انقض عليه بعض الأمراء وعلى رأسهم « بيدرا » وقتلوه ولم يتجاوز عمره ثلاثين عاماً .

وقال بيدرا : إن القتل كان بمشورة الأمراء ، لأن « خليلاً » كان يستهتر بهم ، ويحتقر ممالك أبيه ، ثم عاد « بيدرا » إلى الخيمة السلطانية وأقبل عليه الأمراء وقبلوا الأرض بين يديه ، وحلفوا له وتلقب بالملك « الأوحـد » وقيل « المعظم » وقيل « القاهر » ولكن الكثير من الممالك لم يوافقوا على سلطنة « بيدرا » وكالعادة وقعت فتنة بين الممالك قتل فيها « بيدرا » .



## الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الأولى

كان « محمد بن قلاوون » صغيراً لم يتجاوز التاسعة من عمره : لذا لم يكن من الغريب أن يبدأ التنافس بين الأمراء المماليك على الوصول إلى السلطنة . لكن لم تكن هناك شخصية قوية تفرض احترامها على الآخرين، لذلك رضى الأمراء أن يكون « محمد بن قلاوون » سلطاناً عليهم ، وأجلسوه على العرش سنة ٦٩٣هـ وهو فى التاسعة من عمره ، واختير الأمير « كتبغا » نائباً للسلطنة ، والأمير سنجر الشجاعى وزيراً ، وبذلك أصبح « كتبغا » هو القائم بأعمال السلطنة فأرسل إلى نائب دمشق - حتى يتلافى ما يحدث من القلاقل - كتاباً على لسان السلطان خليل يقول فيه : « إنا قد استتبنا أخانا الملك الناصر محمد ، وجعلناه ولى عهدنا ، حتى إذا توجهنا إلى لقاء عدو يكون لنا من ي خلفنا » وطلب منه أن يذكر اسمه مع اسم السلطان الأشرف خليل فى الخطبة ، وظل الأمر على ذلك حتى وصل إلى نائب الشام خبر مقتل السلطان خليل ، واختيار الناصر ، وهنا طلب منه كتبغا الاقتصار فى الخطبة على اسم الناصر محمد بن قلاوون فقط .

وكان أول عمل قام به كتبغا هو القبض على كثير من الممالك الذى اتهموا بالاشتراك فى جريمة مقتل السلطان « خليل » ولكن سرعان ما حدث خلاف بين « كتبغا » و « سنجر » وبلغ « كتبغا » أن « سنجر » يكيد له ويدبر لقتله لكى يجعل السلطة له ، فأرسل « كتبغا » إلى السلطان الناصر يطلب منه أن يستدعى « سنجر » إليه لأنه قد انفرد برأيه فى القبض على الأمراء فبعث السلطان إلى « سنجر » يستدعيه ، ولكنه امتنع عن الحضور خوفاً على حياته لكن المؤامرات والخيانات أضعفت موقف سنجر عندما انضم عدد من رجاله إلى رجال « كتبغا » وتمكن عدد من رجال « كتبغا » من قتل « سنجر الشجاعى » الذى كان يكره الناس ، والذى قال فيه الشاعر :

تنبيه يا وزير الأرض واعلم      بأنك قد وطئت على الأفاعى  
وكن بالله معتصماً فإنى      أخاف عليك من نهش الشجاعى

وتموت « سنجر » هدأت الفتنة ، وحلف الأمراء للسلطان « الناصر » ونائبه وولى عهده « كتبغا » ودعى لهما فى الخطبة .

## كتبغا يغتصب العرش

وهنا تظهر شخصية أثرت على كتبغا ، وهو الأمير حسام الدين لاجين وهو أحد الذين اشتركوا فى قتل السلطان خليل بن قلاوون ، وكان مختبئاً بجامع أحمد بن طولون ، لكنه سعى إلى لقاء كتبغا ليلتمس له العفو عن عند السلطان محمد بن قلاوون ، ولم يتردد كتبغا فى عمل ذلك ، بسبب صلات المحبة والصداقة التى كانت بينهما . فتشفع كتبغا عند السلطان حتى عفا عن لاجين .

ولكن ممالك خليل سرعان ما غضبوا من ذلك ، لأن لاجين ساهم فى قتل سيدهم ( خليل بن قلاوون ) ولذا قاموا بثورة كبيرة ، وسرقوا سوق السلاح ونهبوا الأسلحة ، وذهبوا إلى باب السعادة وأحرقوه ، ولكن « كتبغا » استطاع القضاء على الثورة وقتل بعضهم .

وبدأ « لاجين » يغرى صديقه « كتبغا » بالاستئثار بالحكم ، ويخوفه من « الناصر » لأنه متى كبر قلن يبقى عليه ، ولا على كل من له يد فى قتل أخيه « خليل بن قلاوون » وأخذ لاجين يزين الأمر « لكتبغا » بأن المصلحة تقضى بخلع « الناصر محمد بن قلاوون » وأن يتربع هو على العرش مكانه ، وما زال به حتى أقنعه ، فأخذ كتبغا يمهد للوثوب على العرش ، وكان أول ما فعله هو التحدث إلى الخليفة العباسى فى عدم أهلية « الناصر محمد بن قلاوون » لصغر سنه ثم اتبع ذلك بخطوة أخرى ، وهى التحدث إلى الأمراء والقضاة ، وأن البلاد فى حاجة إلى سلطان قوى ، ونجحت محاولات كتبغا ، فاقتنع الخليفة بوجهه نظره ، وكذلك وافق الأمراء والقضاة على خلع « الناصر محمد

بن قلاوون « وتولية « كتبغا » الذى بدأ ولايته بنقل « الناصر » وأمه من القصر ، وأسكنه فى بعض قاعات القلعة ، وانتهت بذلك السلطنة الأولى للناصر ، وكانت سنة إلا ثلاثة أيام .

ورأى « كتبغا » أنه لابد من مكافأة صديقه « لاجين » فعينه نائباً له ، ولكن سلطنة « كتبغا » لم تكن موفقة ، وذلك لأسباب خارجة عن إرادته ، وكان من أهم هذه الأسباب هو قدوم بعض المغول الذين فروا من ملكهم وإكرام كتبغا لهم ، وخلع لقب الإمارة على بعضهم ، مما أغضب المماليك ، وكان الشعب يكرههم ، لأنهم عباد أوثان ، ولا يصومون رمضان .

أما أهم الأسباب فكان الغلاء الذى اشتد ، وأهلك معظم الدواب بسبب تناقص فيضان النيل ، وارتفاع الأسعار ، وانتشار الوباء الذى أهلك معظم السكان ، بحيث كان يخرج من القاهرة ما يزيد على سبعمائة ميت كل يوم ، وتزايد الأمر فصارت الناس تدفن فى مجموعات كبيرة بغير غسل أو كفن .

## اغتصاب الأمير حسام الدين

### لاجين للعرش

حاول السلطان « كتبغا » أن يعالج هذه الكوارث . فأحضر من الشام الكثير من القمح حتى يخفف من أمر الغلاء والمجاعة . لكن الناس كرهته ، لأن حكمه اقترن بالكوارث والغلاء والنكبات .

وفى ظل تلك الظروف بدأ لاجين يتآمر على كتبغا ، ويعمل على اغتصاب العرش ونسى صداقته لكتبغا وما صنعه معه من تهريبه حينما كان مطارداً ضمن المشتركين فى قتل « السلطان خليل » ونسى تشفعه له عند السلطان وتعيينه له نائباً عنه فى السلطنة . تناسى كل ذلك وبدأ يتحين الفرصة للقضاء على « كتبغا » وواتته الفرصة حينما اعتزم كتبغا زيارة بلاد الشام ففى الطريق نزل كتبغا إلى إحدى القرى للاستراحة فانقض عليه « لاجين » ليقتله ، ولكن « كتبغا » أحس به فهرب إلى قلعة دمشق ، وأمام هذا الهروب استولى لاجين على أسلحته وخزائنه وحراسه ..

ثم اجتمع بالأمراء وشاورهم فى الأمر ، فوافقوا على اختياره سلطاناً ، بشرط ألا ينفرد برأى دونهم ، ولا يترك ممالিকে يعبثون بمصالح باقى المماليك ، ولا يقدم أحداً من ممالিকে عليهم ، ولا حتى مملوكه «منكوتر» فأقسم « لاجين » أنه لن يفعل ذلك ، وعندئذ أقسم له الأمراء يمين الطاعة .

وبعد أن استتب له الأمر عفا عن « كتبغا » وعينه حاكماً على قلعة «صرخد» وأخذ عليه تعهداً أن لا يشاور أحداً ولا يكاتب أحداً

و« لاجين » كان أحد مماليك الأمراء ، ثم اشتراه « قلاوون » وأعتقه وزوجه إحدى بناته وجعله أميراً وعينه نائباً على قلعة دمشق ، ثم على دمشق كلها .

وبعد وفاة « قلاوون » وتولى « خليل » عزله عن نيابة دمشق ، الأمر الذى دفعه إلى الاشتراك فى قتل « خليل » وكان منصرفاً إلى شرب الخمر ، ولكن بعد أن أصبح سلطاناً تغير وأعرض عن اللهو وعن شرب الخمر ، وأصبح تقديره لأهل العلم عظيمًا ، ويقال إن أحد العلماء دخل عليه وهم بتقبيل الأرض بين يديه فمنعه ، وقال له : « أهل العلم منزهون عن هذا » ومرة أخرى نراه يقبل يد أحد العلماء ، ثم عمل على نشر العدل وحماية صغار الجند من استبداد الأمراء ، وعمل على عدم الإسراف فى الملابس ، وجعل نفسه قدوة فى ذلك ، وحرص على رعاية الأيتام وحمايتهم ، وجدد مسجد أحمد بن طولون ، وأوقف عليه الأوقاف العظيمة ، ورتب فيه دروس التفسير والحديث والفقه الإسلامى ، ودروس الوعظ والارشاد ، وعمل على تعليم الأيتام قراءة القرآن .

وانخفض فى عصره أسعار القمح والشعير واللحم ، وعم السرور فى الناس ، ثم أراد أن يبعد كلا من الناصر محمد بن قلاوون والخليفة العباسى عن سكن القلعة ؛

فأمر بأن يكون للخليفة العباسى سكن خارج القلعة بالقرب من مسجد أحمد بن طولون ، فانتقل الخليفة إلى السكن الجديد .

وارسل فى طلب « الناصر محمد بن قلاوون » فحضر ومعه قاضى القضاة ، وتحدث « لاجين » مع قاضى القضاة ، وقال له : إن الناصر ابن أستاذه قلاوون ، وإنه يعمل فى السلطنة كنائب عنه ، إلى أن يحسن القيام



بأعبائها ، وأنه يرى أن يتوجه « الناصر » إلى الكرك ، ويبقى بها حتى يبلغ مبلغ الرجال ، ثم يعود إلى مصر ليتسلم العرش ، وإن كل ما يطمع فيه « لاجين » هو حكم دمشق ، ثم نسى « لاجين » شروط الأمراء عندما حلفوا له يمين الولاء ، فرقى بعض ممالিকে إلى مرتبة الإمارة ومن بينهم « منكوتر » الذى كانت له مكانة ممتازة ، وثقة كبيرة فى نفس « لاجين » .

وفجر تعيين « منكوتر » الخلاف بين « لاجين » والأمراء والجند . حيث أراد « لاجين » أن يجعل الأمير « منكوتر » نائبا للسلطنة ، فعارض الأمراء ، ولكنه تحداهم ، وعينه نائبا له ، وزاد من تحديه وأراد أن يجعله وليا للعهد حتى يصبح سلطانا من بعده ، ولكن بعض الأمراء نصحوه بالعدول عن ذلك حتى يتجنب ثورة الأمراء .

وسعى الأمراء إلى عزل « منكوتر » من منصبه ولكن مكانته عند السلطان كانت أقوى من كل شئ . لكنه أحس أنه مكروه .

ثم خطا لاجين خطوة أخرى فى نقض شروط الأمراء ، وعزم على استبدال أمراء المماليك فى مصر بأمراء الشام . فاكتشف الأمراء الأمر فأخذوا حذرهم ، واتفقوا على التخلص من « منكوتر » والسلطان ونفذوا مؤامرتهم يوم الخميس ١٠ ربيع الآخر سنة ٦٩٨هـ حيث كان « لاجين » صائما وبعد ما أفطر دخل عليه أحد الأمراء ليذكره بصلاة العشاء ، وعاجله بضربة من سيفه وانقض عليه باقى الأمراء المتآمرين ، ثم قتلوا « منكوتر » وهكذا انتهت حياة « لاجين » بعد أن حكم سنتين وشهرين وثلاثة عشر يوماً ، وكان عمره نحو خمسين عاماً .



## عودة الناصر محمد بن قلاوون

### إلى العرش

اجتمع الأمراء بعد قتل « لاجين » وقام أمير يدعى « كرجى » وقال « يا أمراء أنا الذى قتلت السلطان « لاجين » وأخذت بثأر أستاذى ، والملك الناصر صغير ما يصلح لهذا ، لا يكون السلطان إلا لهذا ، وأشار إلى الأمير « طغجى » وأكون أنا نائبه » .

لكن المجلس انفض دون اتخاذ قراراً فى من يتولى السلطنة ، وشاعت الفتنة ، وقتل الأمير « كرجى » و « طغجى » .

واستقر رأى على استدعاء السلطان الناصر محمد بن قلاوون من الكرك حتى يتولى العرش ، وعرف الناصر بالخبر ففرح فرحاً شديداً ، وأخذ يستعد للعودة إلى مصر ، وكان عمره آنذاك أربع عشرة سنة ، وسار فى موكب حافل إلى مصر ، والأمراء والأعيان بين يديه حتى دخل قلعة الجبل ، وكان أول قرار اتخذه هو تعيين الأمير « سلار » نائباً للسلطنة والأمير « بيبرس » استادار له .

ووظيفة « استادار » كانت من أهم الوظائف ، وأهم أعمال هذه الوظيفة إحضار ما تحتاج إليه المطابخ السلطانية من اللحوم والتوابل وغير ذلك ، وكان « بيبرس » يشغل وظيفة « جاشنكير » وأهم أعمال هذه الوظيفة هى تذوق الطعام قبل أن يقدم للسلطان خشية أن يكون قد دس فيه سم .



## انتصار الناصر محمد بن قلاوون

### على المغول

لم يسترح السلطان من متاعب رحلته من « الكرك » ومتاعب الاحتفال بالعودة مرة أخرى إلى العرش حتى وصلته الأخبار بأن المغول تهدد بلاد الشام ، فأمر على الفور بتجهيز الجيش لتأديب المغول ، وأخذ معه الأمير « سلار » والأمير « بيبرس » ووصل إلى دمشق ، ثم سار إلى حمص فوصلته الأخبار بانتصار فرقة من الجيش على العدو ففرح فرحاً عظيماً ، وقام المغول بمناورة لخدعة السلطان . فأشاعوا أنهم قرروا العودة إلى بلادهم بعد أن عرفوا بقوة جيش « الناصر » فانخدع السلطان ومعه الجنود والأمراء بهذه الإشاعة ، فتهاونوا في واجباتهم العسكرية ، وانتهز المغول ذلك وانقضوا على جند « الناصر » وأنزلوا بهم هزيمة شنعاء .

ورجع الجيش والسلطان إلى القاهرة وما كاد الجيش يعود حتى أخذ السلطان ومعه أمراء المماليك في الاستعداد للعودة إلى بلاد الشام ، وكتبوا إلى سائر الجهات بالوجه القبلى والوجه البحرى لإرسال كل ما لديهم من أدوات الحرب ، وخيل وجمال ، وجمعوا صناعات الأسلحة ، وكلفوهم بالعمل ليلاً ونهاراً لإنتاج كمية كبيرة من الأسلحة وكلف « المحتسب » أن يحصل من الفقهاء على فتوى تجيز أخذ المال من الرعية للنفقة على الجيش ، فأحضر « المحتسب » فتوى قديمة كانت قد صدرت في حالة مشابهة حين أفتى أحد العلماء في أيام السلطان « قطز » قاهر المغول بأن يأخذ من كل إنسان ديناراً ،

وطلب من قاضى القضاة « ابن دقيق العيد » أن يوافق على هذه الفتوى القديمة ، ولكن قاضى القضاة رفض وقال : « إن تلك الفتوى لم يصدرها العالم الجليل « ابن عبد السلام » إلا بعد أن أحضر سائر الأمراء ما فى ملكهم من ذهب وفضة وحلى نسائهم ، وحلف كل منهم له أنه لا يملك سوى هذا القدر الذى أحضره ، ولما كان المال غير كاف أفتى بأخذ دينار من كل شخص ، أما الآن فأنا أعلم أن كلا من الأمراء له مال جليل ، وفيهم من يجهز بناته بالجواهر واللالى ومنهم من يرصع مداس زوجته بأصناف الجواهر » وخرج قاضى القضاة من المجلس ، ولم يجد نائب السلطنة مفرأ من أن يصدر أمره إلى والى القاهرة بالنظر فى أموال التجار والأغنياء ، ويأخذ ما يقدر عليه من كل منهم بحسب حاله .

وبينما كان الاستعداد للحرب قائماً جاء البريد بأن سلطان المغول « غازان » قد رحل عن دمشق ، ثم وصل إلى مصر وفد من المغول ليعرضوا الصلح على مصر ، وكان ضمن الوفد قاضى الموصل وخطيبها ، وبعد أن قرأ السلطان كتاب « غازان » اجتمع مع الأمراء ليشاورهم ، فاتفق الرأى على استدعاء قاضى الموصل . وقالوا له : « أنت من أكابر العلماء ، والنصيحة للدين ، ونحن ما نقاتل إلا لقيام الدين ، فإن كانت الدعوة إلى الصلح من قبيل الحيلة والدهاء . فنحن نحلف لك أن ما ستقوله سيبقى سرا بيننا لا يعلم به أحد سوانا » فحلف القاضى بأنه يعتقد أن « غازان » ورجاله إنما يبغيون الصلح حقاً حقناً للدماء ، ولكنه نصح الأمراء بأن يستجيبوا لطلبه ، وأن يظلوا على أهبة الاستعداد .

فقبل السلطان الناصر محمد بن قلاوون الصلح مع غازان ، ولكنه ظل على أهبة الاستعداد لمواجهة خطر المغول .

وصح ما توقعه قلاوون والأمراء ، فقد قدم البريد من حلب بأن «غازان» يسير إلى بلاد الشام ، ووضح أن دعوته للصالح كانت خدعة ، وفي نفس الوقت أخذ أهل دمشق يرحلون عنها . فأصدر السلطان أوامره بتجهيز الجيش والاستعداد للحرب ، وكان الجنود على أهبة الاستعداد للحرب ، ولا تزال الهزيمة السابقة أمام المغول حافراً على القتال والانتصار ، ووقف السلطان في قلب الجيش ومعه « سلار » و « بيبرس » والكثير من الأمراء والتقى الجيشان بالقرب من دمشق عند « مرج الصفر » وأبلى فيها الجيش والسلطان و « سلار » و « بيبرس » بلاء حسناً وأظهر الجميع شجاعة وفروسية ، وانهزم المغول هزيمة منكرة ، وانتشر خبر الانتصار العظيم ، وخرج السلطان إلى دمشق وسط عدد كبير من الأمراء .

وفي مصر كانت الفرحة الكبرى ، وكانت الزينات تمتد من باب النصر إلى قلعة الجبل ، وتنافس الناس في إقامة الزينات ، ودخل السلطان إلى باب النصر ، وترجل الأمراء حتى وصل موكب السلطان إلى باب البيمارستان المنصوري « مستشفى قلاوون » فنزل ودخله ، وزار قبر والده .

وقد أقبل الناس على هذا الموكب من كل مكان ووصل « الناصر » إلى قصره في القلعة ، ورحب به جميع من بالقصر .





## القضاء على الأعراب

تمكن الناصر من القضاء على خطر المغول ، لكن كان أمامه خطر داخلى لا يقل عن خطورة المغول ، وهم الأعراب الذين كانوا ينتهزون فرصة اضطراب البلاد وينهبون القرى والمدن ، ويقتلون ثم يهربون إلى الصحارى ، ثم قطعوا الطريق على التجار والناس بأسىوط ومنفلوط ، وفرضوا على الناس ضرائب تحت التهديد ، وهجموا على السجون وأخرجوا المساجين ، فأصدر القضاة والفقهاء فتوى بجواز قتالهم .

فبدأ السلطان التجهيز لقتال الأعراب ، بدأه بإصدار قرارات بمنع السفر إلى الصعيد فى البر والبحر ، ثم أطلق الأمراء إشاعة أنهم سوف يسافرون إلى بلاد الشام لأمر هام ، وذلك إخفاء للخطة الموضوعة للقضاء على الأعراب ثم تقرر خروج أربع فرق . الأولى تتوجه إلى البر الغربى ، والثانية إلى البر الشرقى والثالثة إلى النيل ، والرابعة تسلك الطريق الذى يسلكه الناس .

ففوجئ الأعراب على حين غرة بالهجوم عليهم من كل جانب ، واستطاع المماليك القضاء عليهم فى كل مكان هربوا إليه . سواء الجبال أو غيرها ، واستولى الأمراء على أملاك الأعراب وأموالهم وأسلحتهم وخيولهم وأبقارهم .

## الانتصار البحرى على الصليبيين

لم يلق السلطان محمد بن قلاوون سيفه . فبعد الانتصار على المغول والأعراب جاءت الأخبار بالبريد أن الصليبيين الذين طردوا من مدينة « عكا » فى أيام السلطان خليل بن قلاوون بدأوا يهددون سواحلنا فى بلاد الشام بعد ما استولوا على جزيرة « أرواد » .

فأصدر السلطان أوامره ببناء أربع سفن حربية جديدة يستعان بها على القضاء على الصليبيين ، وامتلاً شاطئ النيل من بولاق إلى الروضة بالناس لمشاهدة المناورات البحرية ، وقد بدأت السفينة الأولى والثانية والثالثة بالمناورة ، وأعجب الناس من حسن استخدام الأسلحة البحرية . ثم ظهرت السفينة الرابعة ، وهى سفينة القائد ، وبينما هى فى عرض النيل إذ برىح تهب فتميل ميلاً شديداً وتغرق ، وينجو الجميع عدا القائد . وبعد ثلاثة أيام - أخرجت السفينة الغارقة ، وأصلح ما وقع فيها من عطب ، وخرجت الحملة إلى جزيرة «أرواد» .

واستطاعت الحملة الانتصار على الصليبيين والعودة بالغنائم والأسرى الكثيرة ، وسر السلطان سروراً عظيماً عندما علم بأخبار الانتصار .

## زلزال يضرب مصر

وفى غمرة الاحتفالات بالنصر على الصليبيين فى البحر والنصر على المغول فى الشام والنصر على الأعراب فى داخل البلاد .

وفى يوم الثالث عشر من شهر ذى الحجة سنة اثنتين وسبعمئة هجرية حدث زلزال عظيم هز الأرض ، وخرج الناس إلى الطرقات رجالاً ونساء وأطفالاً ، وانتهز اللصوص ذلك فاقتحموا المنازل ، وحملوا منها الكثير من الأشياء ، وبات الكثير من الناس فى الخيام التى نصبوها من بولاق إلى الروضة ، وزاد الطين بلة على قيام رياح عاصفة لم تقتصر على القاهرة فقط ولكن الوجه القبلى قد هبت عليه ريح سوداء أظلم بسببها الجو ، وتخربت مدينة « قوص » بالصعيد ، وفى الوجه البحرى سقطت جميع دور مدينة « سخا » ولم يبق من « دمنهور » بيت عامر ، وقد أعقب ذلك حركة بناء واسع ، وأقبل الناس على ترميم ما تشقق من دورهم وأخذوا فى بناء ما تهدم منها ، وقد تنافس أمراء المماليك فى ترميم المساجد التى تخربت مثل جامع عمرو والجامع الأزهر ، وجامع الحاكم بأمر الله .

## بيبرس الجاشنكير

استبد سيف الدين سلار نائب السلطان وبيبرس الجاشنكير بالسلطان ،  
وتدخل كل منهما فى أبسط أموره الشخصية من مأكّل ومشرب ، ولما ضاق  
صدر السلطان ، ونفذ صبره ، دبر حيلة للفرار منهما ، فأشاع أنه يريد  
الخروج إلى الحج ، وتحدث معهما فى ذلك فوافقا على خروجه ، ونزل  
السلطان من القلعة فى موكب حافل ، وخرج الأمراء لوداعه ، وعلى رأسهم  
بيبرس « و » سلار « وخرج الشعب لوداعه ولكن السلطان بدلاً من ذهابه  
للحج اتجه للكرك ، واستقر بها ، وخلع على « أمير الكرك » خلعاً جميلاً  
إثباتاً لرضائه عنه ، وأمر السلطان بأن يخرج الرجال من القلعة ، ويعود كل  
منهم ومعه ثلاثة أحجار ، ثم أمر بإغلاق باب القلعة ، وقد فعل السلطان ذلك  
لأنه يخشى على نفسه أن يتآمر عليه أهل الكرك ويسلمونه إلى « بيبرس »  
و«سلار» .

ثم جمع الأمراء وأخبرهم أنه لن يذهب إلى الحج ، وأنه قرر الإقامة فى  
قلعة الكرك وترك السلطنة ، وأمرهم بالعودة إلى مصر ، وطلب منهم أن  
يلغوا « سلار » و « بيبرس » والأمراء أنه قد عدل عن الحج وتنازل عن  
السلطنة ، وأقام فى قلعة الكرك . ثم حملهم كتاباً إلى « سلار » و « بيبرس »  
قال فيه « بسم الله الرحمن الرحيم : حرس الله تعالى نعمة الجنابيين العالين  
، الكبيرين ، الغازيين المجاهدين ، وفقهما الله تعالى توفيق العارفين . أما بعد  
فقد طلعت إلى قلعة الكرك ، وهى من بعض قلاعى وملكى ، وقد عولت على  
الإقامة فيها ، فإن كنتم مماليكى ، ومماليك أبى فأطيعوا نائبى « سلار » ولا

تخالفوه فى أمر من الأمور ، ولا تعملوا شيئاً حتى تشاورونى . فأنا ما أريد لكم إلا الخير وما طلعت إلى هذا المكان إلا لأنه أروح لى ، وأقل كلفة ، وإن كنتم ما تسمعون منى فأنا متوكل على الله والسلام » فرد عليه أمراء المماليك بكتاب جاء فيه .

« .. فخل عنك شغل الصبى ، وقم واحضر إلينا ، وإلا بعد ذلك تطلب الحضور ولا يصح لك ، وتندم ولا ينفعك الندم ، يكون الجواب حضورك بنفسك ومعك ممالكك ، وإلا تعلم أنا ما نخليك فى « الكرك » ولو كثر شاكروك ، ويخرج الملك من يدك والسلام » .

فكان رد الناصر هو إرسال رسول من طرفه ، يحمل معه « شعارات الملك » وبعض الأموال ، وحمله رسالة شفوية فحواها : « قل لسلار ما أخذت منكم شيئاً من بيت المال ، وهذا الذى أخذته قد سيرته إليكم ، انظروا فى حالكم ، فأنا ما بقيت أعمل سلطاناً ، وأنتم على هذه الصورة ، فدعونى أنا فى هذه القلعة منعزلاً عنكم إلى أن يفرج الله تعالى إما بالموت وإما بغيره » .

فاجتمع الأمراء ، واستقر رأى على أن يعهد بالملك للأمير « سلار » ولكنه اعتذر ، ورشح « بيبرس » بدلا منه فوافق الأمراء عليه وبايعوه ثم اختار بيبرس الأمير « سلار » نائباً للسلطنة ، وتلقب بيبرس الجاشنكير بلقب المظفر ، وركب بالخلعة السوداء والعمامة المدورة ، وهكذا انتهت سلطنة « الناصر » الثانية بعد أن حكم عشر سنين وخمسة أشهر وسبعة عشر يوماً .

ولما تم الأمر لبيبرس بادر بكتابة تقليد بمنح الكرك للناصر محمد بن قلاوون ، ولكن بعض الأمراء رفض الاعتراف بسلطنة بيبرس الجاشنكير ، وأصروا على ولائهم للناصر محمد بن قلاوون ، ومنهم نائب دمشق « الأفرم » وقال : « بثس والله ما فعله الملك الناصر بنفسه ، وبثس ما فعله

«بيبرس» وأنا لا أحلف لبيبرس ، وقد حلفت للملك الناصر - حتى أبعث إلى «الناصر» وانضم للأفرم نائب حماه ونائب حلب ، وكتب بعض أمراء الشام خطابات إلى الناصر محمد بن قلاوون يستنكرون منه تنازله عن العرش ، ويعاهدونه على العمل لعودته إلى العرش ، فرد عليهم بكتاب يعرب فيه عن شكره لهم على ولائهم له ، ويطلب منهم الصبر على الأمور وحسن التدبير ، وطلب منهم أن يعرفوه بمجريات الأمور أولاً بأول .

ولم يكن أمراء الشام فقط هم الذين وقفوا إلى جانب محمد بن قلاوون ، فقد كان بعض الأمراء في مصر يكاتبون الناصر في مدة إقامته بالكرك ، ويرغبون في عودته إلى العرش ، وبعض منهم وصل بالفعل إلى الكرك . وأحس بيبرس بالخطر ، فطلب من «الناصر» أن يرسل إليه ما لديه من الممالك والخيول ، ويهدده بالنفى .

وعلى أثر ذلك حدث أول صدام بين بيبرس والناصر الذي بدأ يعد العدة لاسترداد ملكه ، ثم كتب إلى أمراء الشام يطلب المعاونة على استرداد ملكه . وأرسل لهم كتاباً قال فيه : « لما اشتد على الضنك من الأمراء خرجت من مصر ، وتركت لهم الملك ، ورضيت من الدنيا بأحقر المساكن ، وأضيق الأماكن ، ليستريح خاطري من الفكر ، فما تراجعوا عني ، وأرسل المظفر بيبرس يهددني بالنفى إلى القسطنطينية مثل أولاد الظاهر بيبرس ، وأرسل يطلب مني ما لا أقدر عليه ، وأنتم تعلمون ما لوالدي الملك المنصور عليكم من حق العتق والتربية ، وما أظنكم ترضون لي بهذا الحال . فإما أن تكفوا عني أذى هؤلاء الأمراء الذين يتعصبون على ، وإما إنى أتوجه إلى بعض بلاد التتار ، ألتجئ إليهم قبل ما يرسلني الملك المظفر إلى الكفار» .

ووصلت أنباء استعداد الناصر إلى أهل مصر ، فأخذوا يترقبون عودته واسترداده عرشه .

وعاود بيبرس الكتابة إلى الناصر يطلب منه إعادة الأمراء ، وقال له : « وإن لم تسيرهم ، سرت إليك ، وأخذتك معهم وأنفك راغم » ثم زاد كره الناس لبيبرس بعد انخفاض النيل ، وارتفاع سعر القمح وانتشار الأمراض ولكن بيبرس حاول أن يثبت أقدامه على العرش ، فلجأ إلى الخليفة العباسي لتجديد البيعة لبيبرس مرة أخرى ، وحضر القضاة والفقهاء وجددوا البيعة، وأكدوا أنهم باقون على طاعة المظفر بيبرس .

فى نفس الوقت كان الأمراء فى الشام يلتفون حول السلطان الشرعى للبلاد ، ويتعاونون معه أشد التعاون ، ومن هؤلاء الأمراء نائب حلب ، ونائب حماه ونائب صفد ، ثم اتجه السلطان الناصر إلى دمشق .

واضطربت أحوال البلاد بعد أن ضاق الناس بالمظفر بيبرس ، واشتد تطلعهم إلى رجوع السلطان الشرعى ، ورأى « سلار » أن يرسل « بيبرس » إلى السلطان الناصر يعلن له تنازله عن العرش ، ويرجوه الصفح عنه ، وعلى أثر ذلك أعلن « بيبرس » خلع نفسه من السلطنة ، واسقاط اسمه من خطبة الجمعة والعيدىن ، وإعادة الخطبة للناصر .





## عودة الناصر إلى العرش

بعد أن تنازل « بيبرس » عن العرش عاد الناصر إلى عرشه للمرة الثالثة وكان عمره خمسة وعشرون عاماً بعد أن أصبح ذا خبرة من التجارب السابقة .

وتعد هذه السلطنة الثالثة ، حيث إن السلطنة الأولى لم يستقر فيها على العرش أكثر من سنة انتقل بعدها إلى قلعة الكرك شبه منفى ، ثم استدعى بعد مقتل لاجين ليتولى العرش للمرة الثانية ، مدة تزيد عن العشر سنوات ، ثم يخرج إلى الكرك مرة أخرى بإرادته ، حتى تزلزلت الأرض تحت قدمي بيبرس الجاشنكير ، بعدها يخرج السلطان الناصر إلى دمشق حيث تلقاه الناس بالترحاب ومعهم الأمراء الذين وقفوا معه أمام بيبرس . ليسير بعدها إلى القاهرة حيث تلقاه الشعب بالفرح والسرور ، وأقيم احتفال عظيم بهذه المناسبة وبدىء بقراءة القرآن ، وأخذ المقرئ يتلوا قول الله تبارك وتعالى ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) وبدأ الشعراء فى إنشاد قصائدهم تعبيراً عن الفرحة بعودة السلطان .

ومع انتهاء الاحتفالات بعودة السلطان إلى البلاد وجلسه على العرش لمدة ثلاثة أخذ يعمل على تثبيت قواعد ملكه ، وبدأ يعمل على القضاء على المتآمرين الطامعين فى ملكه .

---

( ١ ) سورة آل عمران آية ٢٦ .

وأول من نظر فى أمره من المتآمرين هو « بيبرس » فأصدر أمراً بالقبض عليه ، وجئ مقيداً بالحديد إلى السلطان الذى أخذ فى تأنيبه ، وبيبرس يستعطفه لكن السلطان أمر بقتله ، فقتل سنة ٧٠٩هـ .

أما « سلار » فإنه خاف سوء العاقبة ، وطلب من الناصر نيابة كرك الشوبك فولاه إياها ، ثم استدعاه فتردد سلار فى الحضور . لكن لم يطل تردده ، بعد ما رأى أن لا مفر من تلبية دعوة السلطان ، لكن عندما وصل إلى القاهرة قبض عليه ، وأصدر السلطان أمره أن يرد جميع الأموال التى اغتصبها فرد خمسين حملاً من الذهب والفضة والجواهر والدنانير والأقمشة . ثم أمر الناصر منع الطعام عنه حتى مات سنة ٧١٠هـ فدفن بالكيش ، وإلى سلار تنسب الملابس والمناويل السلارية .

وعلم السلطان بوجود مؤامرة على عرشه ، وكان وراءها بكتمر الجوكندار نائب السلطنة بالاشتراك مع بعض الأمراء الذين اتفقوا على أن يتولى « موسى بن على بن قلاوون » عرش البلاد بدلاً من عمه الناصر . لكن المؤامرة انكشفت فأرسل الناصر يستدعى ابن أخيه الأمير موسى بن على بن قلاوون ، ولكنه هرب خوفاً من عمه إلى أن تم القبض عليه فأصدر الناصر أوامره بقتل كل من اشترك فى هذه المؤامرة وتجاهل أن « بكتمر » هو الرأس المدبر ، لهذه المؤامرة وضع الناس بالشكوى والتوسل إلى الناصر يطلبون عفوه عن المتآمرين وأمام بكاء الناس وإلحاحهم رق قلب الناصر ، وعفا عنهم فزاد ذلك الصنيع فى حب الشعب له .

لكن سرعان ما غدر الناصر بـ « بكتمر » وقتله .

ولم تنته المؤامرات بقتل « بكتمر » فقد أحس بأن « قراسنقر » نائب دمشق لا يكن له الود ، فتغير قلبه عليه ، وأحس قراسنقر بكراهية السلطان له

فكتب إلى « الأفرم » نائب طرابلس يخبره بعزم السلطان التخلص منهما ، وزين له الالتجاء إلى المغول ، ثم أرسل إلى سلطان رسولا يبين له أن ما حملهما على دخول أرض العدو هو الخوف من السلطان ، وقد رحب المغول بالأميرين واستقبلوهما بالحفاوة والترحاب ، وكانت فراسة السلطان صادقة في قراسنقر . لأنه بعد التجائه للمغول أغراهم بغزو بلاد الشام فاستجاب المغول لإغراء « قراسنقر » وصديقه ، وأمام هذا التحريض سافر الناصر بنفسه إلى بلاد الشام ، وعندما علم المغول بقدومه عادوا من حيث أتوا ولكن « قراسنقر » أرسل من يحاول اغتيال « الناصر » فلم تفلح المؤامرة ، وتم القبض على اثنين من المتآمرين ، أمر السلطان بإعدامهما .

وعزم الناصر سنة ٧٣٣هـ على الحج ، ولكنه نما إلى علمه أن الأمير « بكتمر الساقى » يتآمر على قتله ومعه عدد من الأمراء ، وحاول الناصر كشف أمر بكتمر ، فادعى المرض وهو فى طريقه للحج ، وطلب العودة إلى مصر فوافق الأمراء على عودته إلا « بكتمر الساقى » الذى أصر على أن يتم السلطان رحلة الحج ، وأن عودته دون إتمامه أمر غير مقبول . فأخذ الناصر برأى « بكتمر الساقى » بعد ما تأكدت شكوكه فيه ، وظل على حذر منه وفى أثناء الرحلة فر من مماليكه نحو ثلاثين مملوكاً اتجهوا إلى العراق ، فلم يذع السلطان خبر فرار المماليك . وبعد أن أدى مناسك الحج ، وزار قبر الرسول ﷺ حضر أمير المدينة ، وقدم إلى السلطان المماليك الذين فروا ، فأصدر السلطان أمره بإرسال هؤلاء المماليك مقبوضاً عليهم إلى الكرك ، وحدث أن أصيب بكتمر الساقى « وولده بمرض تسبب فى موتهما . مات الابن أولاً ، ولحق به الأب ، والغالب أن الناصر دس لهما السم .

وحامت الشبهات حول تآمر الأمير « تنكز » نائب الشام للقضاء على السلطان ، وكان الناصر قد ولاه نيابة الشام بعد عودته الثالثة إلى الحكم ، إذ

كان موضع ثقته ولذلك طلب الناصر من نواب حلب ، وحماه ، وحمص ، وطرابلس ، وصفد ألا يكاتبه أحد منهم مباشرة ، ولكن يكاتبون الأمير « تنكز » الذى يقوم بدوره بمكاتبة السلطان فى أمرهم .

ولكن سرعان ما تغير الحال بين السلطان على « تنكز » وبدأ الشك فيه ، وانكر «تنكز» بشدة أنه يتآمر على السلطان ، أو أن هناك متآمرين معه على العرش، ولكن السلطان أصدر أمراً بنفيه إلى الاسكندرية ، وانتهى الأمر بإعدامه وإعدام أصدقائه .

والواقع أن الناصر كان رقيق الإحساس يحب العفو ، وقد وضع ذلك عندما عفا عن الأمراء وابن أخيه ، ويبدو أن هذه كانت سمة مألوفة على ما يبدو فى عصر المماليك ، ولكن لأن المماليك كانوا يحسون أن الخطر يمكن أن يداهمهم من أى مكان لذلك سيطرت عليهم فكرة إبعاد الخطر عنهم وعن ملكهم بأى ثمن ، وهذا هو ما فعله الناصر محمد بن قلاوون .



## الناصر والماليك

كان قلاوون والد الناصر محمد بن قلاوون قد عنى بالماليك عناية خاصة إذ كان يحرص على تفقد طعامهم بنفسه ويتذوقه ، وكان يهتم بأمر تثقيفهم وتربيتهم لذا تنافس تجار الرقيق فى إحضار أحسن الممالك إليه .

أما ابنه الناصر فقد حرص على أن ينعم على الممالك بالملابس الفاخرة والخيول والعطايا ، فى نفس الوقت توجيههم ورعايتهم ، فقد كان يسأل عن من يمرض منهم ويشرف على علاجه ، ويمرضه بنفسه مثما ما حدث بالنسبة لمملوكه « الطنبغا الماردانى » وهذه الرأفة كانت ممزوجة بالحزم والصرامة . فإذا علم بفساد أحدهم ، أو ارتكابه محرماً من سكر أو غيره أنزل به العقوبة المناسبة لجرمه ، فقد يضربه ، أو يفصله إن لم ينفذ الأوامر ، وقد تصل العقوبة للتهديد بالقتل عند ارتكاب خطأ أو فاحشة ، وربما نفذ التهديد ، وقد حدث أن تجمهر بعض الممالك عند باب القصر بسبب تأخير رواتبهم فى سنة ٧٢١هـ فأرسل إليهم الناصر أحد الأمراء ليتفاهم معهم حتى لا تكون ثورة ، ولكن الأمير فشل فى ذلك .

فخرج السلطان بنفسه إلى الممالك ، وفى يده عصا صغيرة ، وتقدم منهم فى ثبات وحزم ، وأهانهم وضرب بعضهم بالعصا الصغيرة ، ثم صاح فيهم « اذهبوا إلى أماكنكم » فلم يملك الممالك إلا السمع والطاعة . وهذا دليل ملموس على شجاعة السلطان وهيبته وتمكنه وثقته بنفسه ، لكنه لم يترك الحادثة تمر سدى ، وإنما أمر بالتحقيق فى أسباب تأخر رواتب الممالك ، وعاقب بعضهم بتخفيض مرتباتهم ، كما أمر بتفريقهم ، وبعث بعدد منهم إلى بلاد الشام ، وفرق الباقي بين أمراء الممالك فى مصر . لكنه فى نفس الوقت

عنى بتنشئة جيل جديد طبعه بخلقه وإرادته، هذا الجيل هم صغار الممالك  
الذى جلس لتوزيع الإقطاعات عليهم وعلى الأمراء ، وكان حريصاً على تحقيق  
العدالة فى توزيع الإقطاعات .

وعندما رأى السلطان أحد الممالك وفى وجهه جرح يشبه ضربة سيف  
أعجب به السلطان ، وأمر له بإقطاع جيد وسأله عن الحرب التى أصيب فيها  
بهذا الجرح فقال له المملوك : إنه ليس فى حرب . إنما وقع من سلم ، فلم  
يمنع عنه إقطاعه الجيد ، وتركه السلطان ينصرف به . فقال أحد الأمراء « ما  
بقى يصح له هذا الإقطاع » فالتفت إليه الناصر ، وقال « قد صدقنى ، قال  
الحق ، وقد أخذ رزقه » .



## الناصر والتعمير

امتدت سلطنة الناصر الثالثة إلى ما يقرب من اثنين وثلاثين عاماً أنجز فيها كثيراً من العمارة والمنشآت ، وقد ساعده على ذلك ولعه بالصيد إذ كان يتنقل في البلاد ، فأتيج له أن يقف بنفسه على أحوالها ، ومعرفة ما تحتاجه من أوجه العمارة ، فبدأ بتعمير العاصمة أولاً ، ثم اتجه إلى تعمير الريف وشق الترع وأقام الجسور . مما أدى إلى كثرة الغلات والخيرات ، وسهل الانتقال من مكان إلى آخر ، ومن أهم منشآته الميدان العظيم . الذي أنشأه تحت القلعة بعد سلطنته الثالثة ، وحفر فيه الآبار ، وغرس فيه الأشجار ، وأحاطه بسور عظيم من الحجر وبنى خارج السور حوضاً جعله سبيلاً لمن مر من أبناء السبيل .

وقصر الأبلق يعد من أهم منشآت الناصر ، وقد أنشأه فوق الميدان العظيم ، وحرص الناصر على جعل القصر من أجمل الأبنية ، واستدعى له من دمشق البنائين ، واستخدم في بنائه نوعين مختلفين من الحجر . أسود وأصفر ، ولذلك جاءت تسميته بالقصر الأبلق ، ومن أبواب القصر امتدت دهاليز إلى الداخل من الرخام ، وقد ازدانت جدرانه بالرخام والصدف وزهبت السقوف ، وجعلت على النوافذ شبابيك من حديد ، وأرضية القصر جعلت كلها من الرخام ، وكان السلطان يستقبل الوفود بالقصر في كل الأيام ، ماعدا يومى الاثنين والخميس . ففيهما يجلس في الإيوان ، وهذا الإيوان أنشأه والده السلطان قلاوون ، ولكن الناصر رأى أن يجده ، ويزيد فيه . فأنشأ به قبة جميلة ، وجعل في صدره سرير الملك ، المصنوع من العاج والأبنوس ، وجعل به أفخر الأثاث والستائر . بحيث يبهر النظار الزائرين .

والى جانب القصر والإيوان أنشأ المسجد ، وجعل أرضه من الرخام وزين سقفه بالألوان المذهبة ، وله مئذنتان من أروع المآذن فى مصر ، وأقام به مقصورة تحيط بالأروقة .

وكانت مطابخ القصر تحتاج كميات كبيرة من اللحوم والألبان ومنتجاتها لذا أنشأ حوشاً للغنم تتم العناية فيه بترتبية الأغنام والأبقار والأوز . وقد أنجز ذلك الحوش فى ستة وثلاثين يوماً ، ووضعت به الأغنام والأبقار . كما بنيت بيوت للأوز .

وقد وجه عناية خاصة بالعمارة اللازمة للحريم ، ومن بين هذه العمارة القاعات السبع التى بناها من أجل جواريه داخل القلعة ، والقاعات السبع التى أنشأها خارج القلعة قرب مسجد ابن طولون ، وقد خصصها لبناته .

واهتم كثيراً بتوفير المياه للقلعة ، لذا أمر بحفر عشر آبار يصل عمقها إلى نحو أربعين ذراعاً ، حتى تزيد كمية المياه داخل القلعة ، ولم يقتصر تعميره على القلعة ، وإنما امتدت عمارته خارجها ، ومن أهم تلك العمارة الميدان الكبير الواقع على النيل « جاردن سيتى » والذى خصص لسباق الخيل .

وكان الظاهر ببيرس قد أنشأ قناطر السباع فوق الخليج بين مصر والقاهرة ، وجعل عليها سباعاً حجرية ، فأمر الناصر بهدمها وعمارتها أوسع مما كانت عليه ، وأقصر من ارتفاعها الأول ، ولكنه لم يضع سباع الحجر عليها . فأخذ الناس يتحدثون عن أن السلطان أراد هدمها وإزالتها لكى يمحو السباع من عليها حتى تنسب إليه ، ولا تنسب إلى الظاهر ببيرس ، ولم تكد تصل إلى أسماعه تلك المقولة حتى أمر فى الحال بإعادة السباع الحجرية إلى ما كانت عليه ، ثم أنشأ « ميدان المهارى » ليجمع فيه جميع خيوله . لذا خصص له سجلاً تسجل بيانات كل فرس من حيث سنه ونسبه وأصالته



ومهاراته فى الكر والفر ، وكان السلطان دائم التردد على ذلك الميدان ، ومتابعة أحوال الخيول فيه بنفسه .

وعند باب اللوق أنشأ بستاناً عظيماً ، وأحضر له المطعمون من بلاد الشام. الذين يعرفون تطعيم الأشجار ، وقد تعلم منهم المصريون فن تطعيم الأشجار من وقت إنشاء هذا البستان .

وكانت الفيضانات العالية تهدد مصر ، وتعد خطراً غير مأمون ، وقد نجح السلطان فى وقف خطر الفيضان عندما أنشأ جسراً وسط النيل من جزيرة الروضة إلى الجزيرة الوسطى يكون بمثابة سد ، وأنشأ خليجاً فى الجزيرة الوسطى ، وكان ينزل إلى مكان العمل بنفسه .

وبعد أن اطمأن الناصر على عمارة العاصمة اتجه إلى الريف ، وبدأ عمارته بإصدار أوامره بحفر خليج من القاهرة إلى مدينة سرياقوس ، وقسم العمل فيه بين أمراء الممالك ، وعين لكل أمير مساحة يحفرها ، وأقيمت على هذا الخليج الكثير من القناطر ، وقد أدى إنشاء هذا الخليج « الخليج الناصرى » إلى تعمير جهات مختلفة ، حيث قامت على جانبيه الدور والقصور والأسواق والبساتين ، وامتد العمار إلى أحياء أخرى من المدينة ، وسارت المراكب بين القاهرة وسرياقوس تحمل من الريف إلى المدينة ، ومن المدينة إلى الريف الخير الوفير .

وأتبع ذلك بامتداد التعمير شرقاً تجاه الشرقية وغرباً تجاه الجيزة . فأقام الجسور والقناطر وحفر الترع ، وساهم فى العمل الأمراء ورجالهم ، وتحولت الأرض البور إلى أرض زراعية .

أما أهم الأعمال فهو إعادة حفر وتطهير خليج الإسكندرية الذى لفه الإهمال ، وقد لاحظ الناصر أثناء تفقده للإسكندرية عدم جريان الماء فيه ، مما

تسبب فى تبوير الأرض الزراعية نتيجة حرمانها من الماء ، إلى جانب حرمان الناس من الماء العذب . فاستدعى الناصر نائب الإسكندرية ، وسأله ، فوجد لديه رغبة ملحة فى تطهيره ، وانبرى يعدد للسلطان فوائد ذلك التطهير واستمرار جريان الماء طول العام .

فوافق الناصر ، وأصدر أوامره بتطهيره وتعميقه وتوسيعه ، وطلب أن يكون عمقه نحو ست قصبات ( واحد وعشرون متراً تقريباً ) وعرضه ثمانى قصبات « ثمانية وعشرون متراً تقريباً » وقد قسم العمل فيه بين الأمراء والولاة ، وقد عمل فيه ما يقرب من أربعين ألف رجل .

وترتب على ذلك إعادة الحياة إلى الأرض والناس ، وزادت الأراضى الزراعية على مائة ألف فدان ، ولا يزال هذا الخليج موجوداً حتى الآن ، ويعرف « بترعة الحمودية » وقد تابع الناصر العمل فيه بنفسه ، وكان يستحث الأمراء على الانتهاء من إنجازهم فى أسرع وقت ، لذلك كان العمل يستمر ليل نهار من غير راحة ، وقد تسبب الإرهاق فى موت كثير من الناس تحت تأثير قسوة العمل ، خاصة وإن كثيراً من الناس كانوا يعملون بنظام السخرة ، ويؤخذون من المساجد والأسواق والطرقات قسراً .

وقد تسبب توسيع الخليج إلى نزع ملكية بعض الأراضى من الجانبين ، وأيضاً كانت هناك مشكلة نزع الملكية لاتمام المشروعات ، لذا لجأ الناصر إلى تعويض الناس عما ينزع من أملاكهم ، وقرر أن يصرف ثمن الممتلكات لأصحابها ، ويعوض من أخذت داره .

## الناصر والاقتصاد

كان الناصر طرازاً فريداً فى سلاطين المماليك . جعل هدفه النهوض بالبلاد بالتقدم الاقتصادى ، وتنمية موارد الثروة ، فاهتم بالزراعة والصناعة والتجارة داخل وخارج البلاد .

وقد نالت الزراعة من اهتمام الناصر وعنايته الكثير . حيث شق القنوات فى البلاد ، وحفر الخلجان بها ، فكثرت الحاصلات الزراعية ، ووجه عناية خاصة للثروة الحيوانية ، ومن بينها إنشاء « حوش الغنم » .

وحظيت الصناعة باهتمام الناصر ورعايته ، وقد كثرت فى عهده المنتجات الصناعية من أقمشة ونحاس وزجاج وخزف وخشب ، وقد عمل على تطور صناعة السكر وتقدمها بسبب الكميات الكبيرة التى كانت تستخدم فى الحفلات ، وازدهرت صناعة النسيج بسبب اهتمام الدولة بها ، وإنشاء المصانع لها فى الإسكندرية .

أما التجارة فقد انتعشت وراجت بسبب يقظة الدولة ومحاسبتها للتجار فقد كان المحتسب يطوف الأسواق ومعه نوابه ، ويعاقب من يحاول الغش فى السلع، أو فى الكيل ، وقد ظهرت أسواق مختلفة متخصصة . لكل سلعة سوق خاص بها مثل سوق الفحامين وسوق الخيمية وسوق العطارين .

وتحولت الثغور إلى مراكز تجارية هامة ، وأصبحت الإسكندرية ودمياط وعيذاب ورشيد وقوص من أهم البلاد التى راجت فيها التجارة بحكم مواقعها ، وأصبحت تلك الثغور من أهم مراكز التجارة الخارجية . حيث كانت

المنتجات تأتي من الشرق من الصين والهند واليمن عن طريق البحر الأحمر إلى مدينة عيذاب ، ثم تفرغ المراكب البضائع ، ثم تحمل على ظهور الإبل إلى قوص ، ومن قوص تنقل بواسطة النيل إلى القاهرة ، ثم تواصل سيرها إلى رشيد وخليج الإسكندرية حتى مينائها ثم تصدر إلى أوروبا .

وكانت تجارة أوروبا تأتي عن طريق الإسكندرية أو دمياط أو رشيد ، ثم إلى النيل ، ثم إلى قوص ثم إلى عيذاب على البحر الأحمر . فتحملها السفن إلى موانئ اليمن والهند والصين ، ونتيجة لهذا النشاط التجاري دعت الحاجة إلى تعيين قناصل لبعض البلاد بالموانئ الهامة المصرية ، وكان القناصل مسئولين عن مواطنهم من التجار أمام السلطان .

وحاول بابا الفاتيكان أن يمنع تجار أوروبا من التعامل مع مصر بعد ما تمكن السلطان الأشرف خليل من الاستيلاء على عكا وطرده الصليبيين من آخر حصن لهم في الشام ، ولكن التجار الأوروبيين رأوا أن مصلحتهم المالية أقوى من تعصب البابا ، فقرروا التعامل مع مصر . والواقع أن سياسة تحريم الاتجار مع مصر لم تلق قبولا من التجار الأوروبيين ، وفشل البابا في مخططه .

وجنوباً اتجهت مصر إلى تنمية علاقاتها التجارية مع الدول الأفريقية مثل السودان ومالي وسارت القوافل . سواء على ظهور الإبل ، أو على سطح النيل حاملة منتجات مصر إلى الجنوب ، وعائدة بمنتجات الدول الأفريقية شمالاً .

## الناصر وتحقيق العدالة

لم ينس الناصر حفاوة الشعب به ، ومؤازته فى محنته ، وابتهاجه بعودته إلى العرش ، وقرر أن ينصفه ويحميه من العسف . لذا فلم تكد تستقر الأمور ، ويثبت أقدامه فى الملك حتى أمر بأن يجدد الجلوس بدار العدل أسبوعياً كل يوم اثنين ، وأمر بأن يبلغ الناس بذلك القرار ، وأن يتقدموا بشكاواهم إليه مباشرة . وسوف يفصل فيها بنفسه ، ولم تكد تصدر هذه القرارات حتى خاف الأمراء ، وأدوا حقوق الناس ، وجلس السلطان يسمع شكايات الناس ، وحكم بينهم وأنصف المظلومين .

ولم يكن رفع الظلم كافياً فى رد جميل الشعب ، وإنما لابد من توفير الرخاء له ، وتخفيف أعباء المعيشة عن كاهله ، لذا قام الناصر بإلغاء بعض الضرائب ، وخفف بعضها ، كما أصدر أمراً بتنازل الحكومة من متأخراتها من الضرائب فى ذمة الناس حتى عام ٧١٤هـ .

واتجه إلى تخفيف المكوس فألغى مكس الملح ، ومكس ساحل الغله ، وأبطل ما كان يجبى من زارعى القصب ، وأعفى أصحاب السفن مما كانوا يدفعونه من مكوس ، وأعفى التجار مما كانوا يدفعونه للمشرفين على الأسواق ، وألغى ما كان يجبى من المسافرين على السفن ، وألغى ما كان يحصل من الذين يعملون فى تنظيف المجارى .

وليامن الناس على أنفسهم وأرزاقهم عمل على تخليصهم ممن يعيثون فى الأرض الفساد . فعمل على التخلص من الأعراب وتأديبهم بعد أن عادوا إلى نهب الناس وحرموهم الطمأنينة ، وقد خدعهم وأخذهم على غرة ، عندما

أشاع أنه خارج إلى الصعيد للصيد ، ثم انقض عليهم ، وقتل عدداً كبيراً منهم وأسر عدد أكبر .

ولم تتوقف حماية الشعب من الأذى عند القضاء على الأعراب ، وإنما أصر الناصر على حمايته من أى أذى حتى لو كان من مماليكه فقد حرص على عدم استبداد الممالك بالشعب ، وإذا علم أن أحداً استبد أو استغل وظيفته فإنه يسرع إلى وقف هذا الاستبداد . فمثلاً عندما علم السلطان أن أحد الأمراء يرتشى سارع إلى إعفائه من منصبه ، لأن الناصر كان يكره المرتشين ، ويعتقد أنهم أساس الفساد .

وعندما علم بسوء سلوك بعض الأمراء من الممالك على أثر سكرهم أمر بعدم نزولهم من القلعة إلى القاهرة إلا بعد الرجوع إليه .

وامتدت حمايته للشعب ورعايته إلى إبعاد كل مصادر الخطر عنه ، ولو كان ذلك الخطر مرضاً معدياً ، لذا رأى أن يخصص لمرضى الجذام والبرص مصحة خاصة بهم فى إقليم الفيوم ، بعد أن كانوا يعيشون فى القاهرة وسط سكانها ، وينقلون العدوى إليهم .



## الناصر وكريم الدين

لمع فى عصر الناصر « كريم الدين » ، وقد بدأ « كريم الدين » حياته كاتباً عند الأمير « بيبرس الجاشنكير » وكان مسيحياً ثم أسلم ، وكان هذا أمراً مألوفاً بين الناس ، حتى يتمكنوا من فرصة الترقى فى وظائف الدولة . وعندما أمر الناصر بقتل السلطان « بيبرس الجاشنكير » وأصدر أمراً بتعيين « كريم الدين » ناظراً للخاصة ، وهى وظيفة يشرف فيها على أملاك السلطان وأمواله . وكان « كريم الدين » كريماً محبوباً من الناس . يحب الخير لهم تجلى ذلك عندما مرض وأخذ الممالك يحضرون إليه لعيادته فيغدق عليهم ، وعندما شفى تصدق بمال كثير ، وأقام مأدبة فاخرة بها مائة خروف مشوى ، وخلع على الأطباء خلعاً سنية ، وكان موضع ثقة السلطان لدرجة أنه ائتمنه على عرضه ، وأدخله على حريمه ، وسبب سماح السلطان بدخوله على حريمه أنه عندما كان يتلقى أوامر زوجة من زوجات السلطان عن طريق إحدى وصيفاتها ، وتظل الوصيفة تروح وتجيئ مرات عدة حاملة أوامر الزوجة ورد كريم الدين .. فقال له السلطان : يا قاضى ما الداعى لهذا التطويل ؟ زوجتى بمثابة ابنتك ، لا يحول بينك وبينها حجاب ، أدخل إليها ، وأبصر ما تريده وافعله لها .

وأمرت الزوجة بإعداد الطعام ، وقام السلطان بنفسه إلى تقديم العنب لكريم الدين وقال : « كل من عنب دارنا » .

وعندما وصلت منزلة « كريم الدين » إلى هذه الدرجة الرفيعة عند

السلطان ، وعلت مكانته فى نفوس الناس كلهم ، بدأ الحق يدب فى قلوب  
الأمراء ، فبدأوا بالوشاية والوقيعة بين السلطان وكريم ، وأخذوا يحيكون له  
المؤامرات ، ويلفقون له التهم ، فاتهمه بعض الأمراء بأنه ينفق من أموال  
السلطان ، ويقوم بتفريقها على الناس حتى يقال عنه إنه كريم .

ومازالوا يوغرون صدر الناصر عليه حتى صدق الوشاية ، وأمره أن  
يلزم بيته ، وعندما علم الناس توافدوا عليه يزورونه ، ولكن الناصر أمر بنقله  
إلى القدس ، ثم عاد إلى القاهرة ، فأصدر أمراً بتعيينه فى أسوان ، ولكنه  
وجد مشنوقاً ، وأغلب الظن أنه مات مقتولاً لا منتحراً .





## الناصر وشرف الدين

هو شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله المعروف بالنشو ، وكان نصرانياً تظاهراً باعتناق الإسلام ، وتقلد بعض الوظائف ثم عينه الناصر فى وظيفة ناظر الخاصة سنة ٧٣٢هـ ولما خرج للحج أمر أن يصحبه فى الرحلة المقدسة ، لكن النشو لم يكن مخلصاً فلم يكدر يتولى نظر الخاصة ، ويحظى بعطف السلطان ، وينال منزلة سامية فى الدولة ، حتى ارتكب الكثير من المظالم ، وأكثر من مصادرات الكتاب والتجار والأغنياء حتى ضج الناس بالشكوى منه ، وتقدم بعض الأمراء للسلطان يطلبون عزله من منصبه . علاوة على الكتب التى وصلت للسلطان من عامة الشعب تجار بالشكوى من تعسفه وظلمه .

وكان النشو غاية فى اللؤم والخداع ، لذا حرص على الظهور أمام السلطان بمظهر الفقير المعدم حتى يزداد السلطان ثقة فيه ، ولكن أمام الشكوى الصارخة منه لم يجد السلطان بداً من القبض عليه ومصادرة أمواله التى أحصيت فكانت ١١٥ ألف دينار و ١٥٠ حبة لؤلؤ و ٧٠ فصاً من الأحجار الكريمة ، وقطعة من الزمرد زنتها رطل ، و ٦٠ حبلاً من لؤلؤ و ١٧٠ خاتماً من الذهب والفضة و ٤٠٠ بذلة قماش جديدة و ٨٠ بذلة قماش مستعمل وغير ذلك من الأشياء القيمة .

فقتل النشو « شرف الدين » بعد أن كفن بكفن لم يتجاوز قيمته أربعة دراهم .

وفرّج الناس على أثر القبض على شرف الدين ، ونادى المنادى « أن يبيعوا واشتروا ، واحمدوا الله على خلاصكم من النشو » .

## الناصر وحياته الخاصة

نال الناصر أعلى تربية فى ظل والده السلطان قلاوون ، لذا كان حسن الخلق . لطيف الطبع . ومن أهم صفاته الشخصية أنه كان عف اللسان لا يفحش بالقول . سواء كان غاضباً أم منبسط الوجه ، رحب الصدر . لا يميل إلى الهزل فى موضع الجد ، شديد الغضب فى الحق .

لا يميل إلى الزخرف فى لباسه . إذ ترك ما كان يتحلى به سلاطين الممالك من الملابس الغالية الثمن ، وكان يعنى بذاته ، ويتجمل من غير إسراف ، وقد حدث ذات يوم أن نزل به مرض ألزمه الفراش أياماً . فلما عوفى منه دخل الحمام وهناك رأى أن يحلق رأسه كله ، ولما رآه الأمراء بادروا إلى تقليده فحلقوا رؤوسهم ، ومنذ ذلك الوقت أبطلت عادة إرخاء ذوائب الشعر التى كانت مألوفة لدى الممالك .

وكان الناصر متديناً ، وقد حرص بعد أربع سنوات من سلطنته الثالثة على الخروج إلى الحج ، وبعد أدائه لمناسك الحج وزيارة قبر الرسول ﷺ عاد إلى قلعة الجبل بالقاهرة ، وبعد ذلك بست سنوات خرج مرة أخرى لزيارة البلاد المقدسة ، وأداء فريضة الحج بعد ما أصدر أوامره بإعداد كسوة الكعبة من الحرير ، وأخذ ناظر الخاصة « كريم الدين » الاستعداد للسفر إلى الحجاز ، فأمر بعمل قدور من ذهب وفضة ونحاس ، لكى تحمل ويطبخ فيها طعام السلطان ، وأحضر الجنائنية لعمل ورود ورياحين فى أحواض من خشب تحمل على الجمال وتسقى بالماء ، وأعد فى البحر الأحمر مركبين إلى ينبع ، ومركبين إلى جدة .

وعندما وصل إلى مكة تزلف بعض المنافقين إليه من القضاة المرافقين له، وزين له أن يطوف بالكعبة راكباً كما فعل النبي صلوات الله وسلامه عليه ، فالتفت الناصر إليه وقال فى خشوع : « ومن أناحتى أتشبه بالنبي صلوات الله وسلامه عليه ، والله لا أطوف إلا كما يطوف الناس » وأمر الحراس المحيطين به ألا يمنعوا الناس من الطواف معه ، فصاروا يزاحمونهم وهو يزاحمهم كواحد منهم ، وقد غسل الكعبة بيديه ، وكان كثير العطف على أهل الحجاز . فعندما حدث القحط ببلادهم أمر السلطان أن يحمل إلى مكة القمح بكميات وفيرة .

وبعد ثلاثة عشر عاماً من الحجة السابقة خرج للحجة الثالثة ، وزيارة بيت الله الحرام ، واصطحب معه زوجته « طغاي » وابنه « آنوك » وعندما علم بمؤامرة « بكتمر الساقى » أمر بأن تسير زوجته وابنه إلى الكرك ، وأن تستمر قافلته فى طريقها إلى الحجاز ، وأدى المناسك ، وكان من أمر بكتمر ما كان .

وكان الناصر يخشى الله ، ويقف عند حدوده لا يتجاوزها ، لذا كان يكره شرب الخمر ، وإن كان يهتم بالطعام ، ويعنى به عناية كبيرة ، فلم يكن غريباً أن يعج سماطه كل يوم بأنواع الطيور واللحوم المشوية من ضأن وغزلان وأرانب ، وصنوف الحلوى المختلفة .

ومن صفاته الخيرة أنه كان باراً ، عطوفاً بممالك أبيه . يعرفهم جميعاً ، ويعرف أولادهم بأسمائهم ويعرف ممالكهم ، ووظائفهم ، ويغدق عليهم ، وكان محباً للعلم والعلماء . يكرمهم ويقربهم منه ، وكان للمؤرخ المشهور «إسماعيل أبو الفدا » مكانة عظيمة عنده .

أما عن زوجات الناصر فهن أربع : أردكين ، والأميرة المغولية ، وطغاي ، وابنة الأمير تنكز .

أما « أردكين » فهي زوجة أخيه السلطان الأشرف خليل . اضطر للزواج منها عندما قتل أخوه . فأنجبت له « عليا » سنة ثلاث وسبعمئة ، ولكن حياة « على » انتهت وهو لا يزال فى سن الطفولة . فحزنت أمه عليه حزناً شديداً ، وانقطعت الصلة التى كانت بينها وبين السلطان ، وانتهت حياتها معه بالطلاق، وأنزلها من القلعة لتعيش فى القاهرة .

أما الأميرة المغولية « طلنباى » فقد كان زواجه منها زواجاً سياسياً . لأن الناصر كان يرغب فى أن يسود السلام . فرحب بعقد الصلح بينه وبين المغول ، ثم أراد توثيق ذلك الصلح فأرسل يطلب خطبة إحدى أميرات البيت المغولى من بيت جنكيز خان . لكن حال دون إتمام ذلك الزواج الشروط المتغالية من قبل المغول . إذ اشترطوا مهراً ألف ألف دينار ، وألف ألف فرس ، وألف عدة كاملة للحرب . فعدل الناصر عن ذلك الزواج . لكن « أزبك » أمير المغول بعد ثلاث سنوات أرسل فتاة من أحفاد « جنكيز خان » ومعها مائة وخمسون رجلاً وستون جارية لخدمتها ، ومعها رسالة من والدها « أزبك » يأمل فيها أن تحوز العروس إعجاب السلطان . فرد عليه « الناصر » بقوله : « نحن لا نريد الحسن ، وإنما نريد كبر البيت ، والقرب من أخى ، ونكون نحن وإياه شيئاً واحداً » وقد ظلت هذه الأميرة زوجة للسلطان ثمانى سنوات ، ثم طلقها وزوجها من أحد الأمراء .

أما « طغاي » فكانت فى الأصل جارية تركية ، وكانت أحب زوجات الناصر إليه . فقد كانت بديعة الحسن ، باهرة الجمال ، وعندما عادت من الحجاز خرج السلطان للقائها ، وكان الأمراء والعلماء يترجلون عند نزولها ، ويقبلون الأرض لها ، كما يفعلون للسلطان ، وقد كانت كثيرة الخير والصدقات ، وأنجبت للسلطان ابنه « آنوك » فى سنة ٧٢١هـ .

أما عن ابنه الأمير « تنكز » وتدعى « خوند مطلونبك » فقد كانت من المقربات إلى السلطان بحكم العلاقة الوثيقة التي كانت تربط والدها الأمير « تنكز » بالسلطان . تلك العلاقة التي ظلت قوية إلى أن تغير السلطان على « تنكز » وأمر بقتله ، ولقد رزق الناصر الكثير من البنين والبنات ، أما البنون فكانوا نحو ست عشر ولداً ، ولى السلطنة منهم ثمانية ، وتوفى منهم فى حياته ثلاثة كان آخرهم « آنوك » .

وكانت زوجته « طغاي » إذا خرجت إلى النزهة ركبت فرساً ، وأمسك بزمام الفرس أمير من الأمراء ، وسار حولها الخدم إلى أن تصل إلى النيل ، وتسير بها المركب حتى الجيزة .

وكان الناصر محباً للخيل ، لأنه كان فارساً ، لذا اهتم بالاسطبلات اهتماماً خاصاً فجعل لها موظفين ، وجعل على رأسها ناظراً ، وقد بلغ عدد خيوله ثلاثة آلاف فرس ، كان يعرض عليه نتاجها كل عام ، فيعنى بها ويسلمها لمن يعلمها ويروضها .

وكان السلطان شغوفاً بالصيد . يخرج إليه فى جميع الأماكن . فى الصعيد وقلوب والبحيرة ، واستلزم ذلك أن يجلب السلطان الطيور الجوارح التى تساعد على الصيد ، مثل الصقور والشواهين والسناقر .

وقد خرج ذات يوم إلى قلوب للصيد ، ولسبب ما وقع عن فرسه وهو يجرى فانكسرت يده ، وعاد إلى القلعة محمولا ، واستدعى الأطباء والمجبرين لعلاجيه وكان من بين المجبرين رجل قال للسلطان : إن كنت تريد أن تشفى سريعا - لا تدع أحداً يداويك غيرى - بمفردى . وإلا فسدت حال يدك . وقد سلمت رجلك لابن السيسى فأفسدها ، أما أنا فلن يمضى عليك شهر حتى تتركب وتلعب الكرة بيدك ، وقد استغرق العلاج سبعة وثلاثين يوماً شفى بعدها الناصر من كسره .

ولقد كان السلطان محباً للعب الكرة ومن أجلها أنشأ الميدان العظيم تحت  
القلعة .

أما من ناحية المال فإن الناصر كان شغوفاً بجميع أصناف الجواهر ،  
وقد وجد عنده الكثير من الياقوت والأحجار الكريمة والزمرد واللؤلؤ ، ولأن  
التجار يعرفون عنه ولعه باقتناء الجواهر فقد تنافسوا في إحضارها إليه من  
شتى البلاد .



## وفاة الناصر

كانت وفاة « آنوك » ابن الناصر هى بداية النهاية لهذا السلطان العظيم ، فقد أحب آنوك حباً شديداً ، وكانت وفاته ضربة قصمت ظهره . فظل حزيناً عليه .

فقد أملت بالسلطان بعض الاضطرابات الصحية ، واضطر أن يلزم الفراش خمسة أيام متوالية فى سنة ٧٤١هـ ثم اشتد به المرض وبدأت نذر النهاية ، وأحس الناس بالخطر ، فأخذوا يدعون الله له بالشفاء حتى استجاب الله لدعائهم وتمائل السلطان للشفاء ، وبدأ الأمراء فى إقامة الولائم والأفراح اغتباطاً بشفائه .

وفى صباح العيد اجتمع الأمراء لدى السلطان استعداد لخروجه لصلاة العيد . لكنهم اختلفوا حول نزوله لصلاة العيد أو بقاءه فى القصر ، وكان رأى الأميرين قوصون وبشتاك ، وهما أقوى الأمراء - وكل منهما متزوج بابنة من بنات السلطان - أن يتحامل السلطان على نفسه ، وينزل للصلاة حتى لا ينزعج الشعب عليه ، ونزل « الناصر » إلى الميدان لصلاة العيد ، ولكنه لم يستطيع البقاء لتحرك المرض عليه فرجع إلى القصر . وبدأ الخلاف يظهر بوضوح بين الأميرين بشتاك وقوصون ، ولم تشفع رابطة المصاهرة فى منع هذا الخلاف . أما « بشتاك » فقد بدأ حياته بائعاً متجولاً فى البلاد ، ثم صار من الأمراء ، وقد امتاز بقامة مديدة وبياض فى البشرة ولحية خفيفة . وقربه الناصر إليه وأعلى مكانته ، ولكن بشتاك كان جريئاً فى تحدى السلطان .

أما « قوصون » فقد كان هو الآخر بائعاً متجولاً ، وقد كان جميل الخلقة أبيض البشرة ، مديد القامة . أعجب به الناصر ، وضمه إلى مماليكه ، وأخذ يترقى حتى وصل إلى أعلى المناصب . وعند ذلك تزوج السلطان بأخته كما تزوج هو بابنه السلطان .

وكان التنافس بين هذين الأميرين شديداً ، وحاول السلطان أن يصلح بينهما ، وأرسل إليهما فتصالحا أمامه واقترح الأمراء أن يعهد السلطان إلى أحد أبنائه بالملك بعده ، فاستجاب لرغبتهم ، واقترح أن يخلفه على العرش ولده « أبو بكر » ولكن بشتاك اعترض ، واقترح على السلطان أن يختار ولده « أحمد » فرفض السلطان ، وحذر الأمراء من أحمد ، لأنه فى نظره لا يصلح للعرش ، واستقر رأى على أبى بكر ولياً للعهد .

ثم زاد المرض على الناصر محمد بن قلاوون بعد أن ظل يكافحه أحد عشر يوماً ، وأخيراً انتصر عليه الموت فى أول ليلة الخميس الحادى والعشرين من شهر ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ، وكانت سنة سبع وخمسون سنة وأحد عشر شهراً وخمسة أيام ، وحمل داخل القبة ، وغسل ودفن مع أبيه تحت هذه القبة العظيمة « القبة المنصورية » .

وإذا كان الناصر محمد بن قلاوون توفى سنة ٧٤١هـ فإن الحكم ظل فى أعقابيه من أولاده وأحفاده أكثر من أربعين سنة . أى حتى سنة ٧٨٤هـ وهى ظاهرة فريدة لم تحدث فى تاريخ المماليك ، لأنهم لم يؤمنوا بمبدأ الحق الوراثى فى الحكم ، مما يدل على مدى إخلاص الناس لبیت قلاوون ، وتأثرهم بعهد الناصر محمد بالذات .





## الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الرق	٧
الممالك	٩
المنصور قلاوون	١١
محمد بن قلاوون	١٣
الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الأولى	١٧
كتبغا يغتصب العرش	١٩
اغتصاب الأمير حسام الدين لاجين للعرش	٢١
عودة الناصر محمد بن قلاوون إلى العرش	٢٥
انتصار الناصر محمد بن قلاوون على المغول	٢٧
القضاء على الأعراب	٣١
الانتصار البحرى على الصليبيين	٣٢
زلزال يضرب مصر	٣٣
بيبرس الجاشنكير	٣٤
عودة الناصر إلى العرش	٣٩
الناصر والممالك	٤٣
الناصر والتعمير	٤٥
الناصر والاقتصاد	٤٩
الناصر وتحقيق العدالة	٥١
الناصر وكريم الدين	٥٣
الناصر وشرف الدين	٥٥
الناصر وحياته الخاصة	٥٦
وفاة الناصر	٦١
الفهرس	٦٣



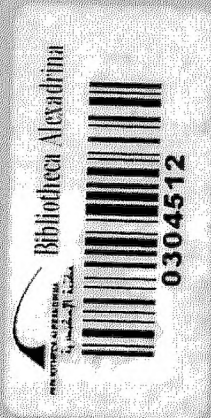


## هذا الكتاب

تناولنا في هذا الكتاب سيرة واحد من أهم  
السلاطين الذين حكموا مصر . فقد وصلت مدة  
حكمه إلى ثلاث وأربعين عاماً .. تقلبت فيها البلاد  
بين الأطماع والدسائس والهزائم والانتصارات  
والتقدم والتأخر.. وتارجح العرش من تحته .  
تارة يبعد عنه بمؤامرة ، وتارة يعود تحوطه  
التهافت والأعلام الخلافة .

أن سيرة هذا السلطان المملوك سيرة تستحق  
منا الاهتمام لذا قدمناها لك في هذا الكتاب سيرة  
وتاريخاً ومجداً لبلادنا .

الناشر



قرش جديد  
٧٥٠